الوحدة الموضوعية في سورة الحجرات

منصور علي سالم ناصر العمراني
جامعة الحديدة –الحديدة– اليمن
Email : Mansor20069@gmail.com
DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v1i1.2

ملخص البحث.

الهدف من البحث: *يهدف هذا البحث إلى بيان الترابط الموضوعي والعضوي بين سور القرآن الكريم عامة، والسورة القرآنية الواحدة خاصة، وفي هذا الترابط العجيب تتجلى الصورة الإعجازية لهذا الكتاب الكريم، مما يدل دلالة واضحة على أنه ليس من كلام البشر، بل هو معجزة خالدة دالة على صدق من أنزلت عليه رسول الأمة محمد صلى الله عليه وسلم.* ***مكونات البحث:*** *يتكون هذا البحث من: –* ***المقدمة:*** *والتي تناولت فيها* ***سبب اختيار البحث، وأهميته، ومشكلته، وحدوده، وهدفه، ومنهجه. – هيكل البحث والذي يتكون من: المبحث الأول: مدخل إلى التفسير الموضوعي وفيه مطالب:*** *المطلب الأول: تعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحا المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي. المطلب الثالث: الوحدة الموضوعية.* ***المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة الحجرات وفيه مطالب المطلب الأول: التعريف بسورة الحجرات وفيه:*** *1- سبب نزولها. 2- عدد آياتها. 3- مكية أم مدنية. 4- مناسبتها لما قبلها وما بعدها من السور.* ***المطلب الثاني: الموضوعات التي تناولتها السورة. المطلب الثالث: المحور العام الذي تدور حوله السورة. المطلب الرابع: الوحدة الموضوعية للسورة من خلال محورها العام. الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والاستنتاجات والتوصيات.***

Abstract

Research Objective: This research aims to investigate the miraculous value of the Holy Qur'an, and to reflect the remarkable correlation between the verses and the subjects focused on. The study sheds some light on the conclusive evidence that the Holy Quran cannot be a human speech and it is the words of Allah, The Almighty. It is an eternal divine miracle that bears witness to the truthfulness humanity. The research consists of an introduction and two sections as follows: The first topic includes an introduction to the objective interpretation, which include the following subsections: Definition of the objective interpretation with regard to language and terminology; The importance of objective interpretation; and Objective unity The second topic focuses on the unity in Surah Al-Hujurat, which includes the following sub-sections: Definition in Surah Al-Hujurat and it includes: a. The reason for the Surah; b.The number of verses; c.Makki or Madani. d.Its suitability with the preceding and following Suras 1-Topics covered by Surah; 2-The general theme on which the Surah focuses; 3-The objective unity of the Surah through its general theme. Finally, the research is entailed with the conclusion, the main results and recommendations.

المقدمة.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فإن كتاب الله تعالى هو المعجزة البيانية الخالدة في معانيه، ولغته وأسلوبه، محفوظ على مدى الأزمان بحفظه تعالى، كيف لا؟ وهو القائل في محكم كتابه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر:9]. فهذا الكتاب الذي بهر أرباب الفصاحة بروائع كلماته ودقيق ألفاظه، ومحكم تراكيبه، ورصين أسلوبه، هو معجزة بيانية متجددة في كل عصر ومصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لهذا كانت علوم القرآن عامة، وعلم التفسير خاصة، من أشرف العلوم وأكرمها لتعلقها ببيان معاني القرآن الكريم، وتجلية حقائقه، وبيان حججه وتوضيح براهينه في العقيدة والشريعة والمنهج والسلوك، وفيما يجد من قضايا تحتاج الأمة إلى بيان موقف القرآن منها. ولهذا الاعتبار رأينا سلف الأمة غاصوا في أعماقه واستخرجوا مكنون دره، وكان لهم فضل السبق في هذا المجال الكريم، ومن مظاهر عظمة هذا الكتاب وحدته الموضوعية، التي جعلته كسبيكة واحدة من أوله إلى آخره فسبحان من أنزله وأحكمه.

ولقد كان لكثير من العلماء جهود واضحة في بيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، فقد بينوا أن القرآن الكريم من أوله لآخره عبارة عن عقد منتظم فسبحان من أحكم نظمه وتأليفه. يقول الدكتور دراز في كتابه النبأ العظيم: "اعمد إلى سورة من تلك السور التي تناولت أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن – فهي جمهرته– وتنقل بفكرك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين، كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، ووطأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به، أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد، أم في نجوم شتّى؟ ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة واحدة، حتى يحدثك التاريخ أن كلها أو جلها قد نزلت نجوما، أو لتقولن إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده، ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا بالبنيان قد عاد مرصوصا، يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة"(دراز–1984–154).

ومن هنا تبرز أهمية هذا اللون من التفسير في استجلاء الموضوع القرآني كاملا دون نقص أو قصور مما يجنب الباحث الانزلاق في مهاوي الضلالات والافتراء على القرآن دستور الرسالة

الخاتمة بما هو بريء منه.

ونتيجة لما سبق فقد أقدمت مستعينا به تعالى على الكتابة في هذا الفن من التفسير وهو ما يسمى بالوحدة الموضوعية، واخترت سورة الحجرات أنموذجا لذلك، ليكون عنوان البحث " **الوحدة الموضوعية في سورة الحجرات**"

سبب اختيار البحث:

إن مما دفعني لاختيار هذا البحث هو:

1- إن سورة الحجرات مليئة بالموضوعات والتوجيهات القرآنية التي في الأخير تلتقي جداولها في مصب واحد وهو بناء الأخلاق في المجتمع المسلم، أيضا بحسب اطلاعي – في حدود_ أنه ليس هناك من تناول هذا الموضوع بإشباع من خلال هذه السورة وإنما شذرات ومقالات هنا وهناك.

2- أهمية هذا الموضوع في بيان الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم، وتجليتها على أفضل وجه؛ كونه يتناول الموضوع الواحد في القرآن الكريم أو موضوعات السورة الواحدة بنوع من التفصيل والإشباع.

أهمية البحث.

يعد البحث في علوم القرآن من أهم العلوم التي ينال بها الإنسان رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة؛ كونه مرتبط بكلام الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال ابن عطية: ((لما أردت أن أختار لنفسي وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي سبرتها بالتنويع والتقسيم وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم فوجدت أمتنها حبالا وأرسخها جبالا وأجملها آثارا وأسطعها أنوارا علم كتاب الله)) (الأندلسي-1993-34/1).

مشكلة البحث.

ليس هناك مشكلة حقيقية تقف حاجزا أمام هذه الدراسات، لكن مثل هذه الدراسات الموضوعية التي تهدف إلى إظهار الترابط الموضوعي والعضوي داخل القرآن بشكل عام، أو السورة بشكل خاص، عادة ما تحتاج لفكر ثاقب، واستنباط صائب، وهذا ما يجعل الباحث يعيد النظر مرات ومرات خاصة في المواطن التي لا يظهر فيها الترابط لأول نظرة، وهذا يستغرق جهدا ذهنيا وزمنيا في آن واحد.

حدود البحث.

تقتصر هذه الدراسة الموضوعية على سورة الحجرات من خلال دراسة وحدتها الموضوعية، والتي هي نوع من أنواع التفسير الموضوعي، بل تعد – الوحدة الموضوعية من خلال سورة معينة- من أفضل الدراسات القرآنية في هذا المجال دقة كونها محددة ومقننة.

هدف البحث.

يهدف البحث إلى:

1- بيان أهمية التفسير الموضوعي في الكشف عن التناسق القرآني العجيب المعجز الذي يظهر من خلاله عظمة كتاب الله عزوجل.

2- الرد على أولئك النفر من المستشرقين الذين زعموا بأن القرآن خليط متنافر، وجمع غير مؤتلف، ليس فيه وحدة للموضوع، وأنه بحاجة لإعادة ترتيب كما زعم المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير وغيره.

منهج البحث.

إن المنهج الذي اتبعته هو المنهج الاستقرائي الاستنباطي في عرض الموضوعات وتحليلها وربطها مع بعضها جريا على الطريقة المعهودة في الدراسات الموضوعية.

طريقة البحث.

إن الطريقة المتبعة في تقسيم الموضوع هي طريقة البحوث العلمية الأكاديمية على النحو التالي:

1- كتابة الآيات وعزوها إلى السور التي وردت فيها مع بيان اسم السورة ورقم الآية.

2- إذا استدعى المقام الاستشهاد بالآية مرة أخرى في نفس الصفحة فإني لا أعزوها مكتفيا بما أشرت إليه سابقا.

3- استخدام القوسين المزهرين للآيات لتمييزها عن ما سواها.

4- إذا نقلت كلام عالم من العلماء بالنص فإني أنصصه بين قوسين وأشير في الهامش لاسم الكتاب، ومؤلفه، ودار النشر، ورقم الطبعة، وسنة الطبع إن وجد، مع بيان رقم الجزء والصفحة.

5- إذا تم اقتباس كلام من أي كتاب مع تصرف يسير فإني أكتب العبارات بدون أقواس ثم أشير في الهامش بكلمة ينظر، وأشير للكتاب الذي تم أخذ المعلومات منه.

6- أنقل آراء المفسرين في الموضع الواحد مرتبا ذلك حسب أقدمية المؤلفين؛ لأن اللاحق عادة يستفيد ممن سبقه.

هيكل البحث.

إن هيكل البحث يتكون من مقدمة والتي تناولت فيها والتي تناولت فيها **سبب اختيار البحث، وأهميته، ومشكلته، وحدوده، وهدفه، ومنهجه.** وكذلك هيكل البحث الذي انحصر بعد المقدمة في مبحثين وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: مدخل إلى التفسير الموضوعي وفيه مطالب:

المطلب الأول: تعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي.

المطلب الثالث: الوحدة الموضوعية.

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة الحجرات وفيه مطالب

المطلب الأول: التعريف بسورة الحجرات وفيه:

1- سبب نزولها.

2- عدد آياتها.

3- مكية أم مدنية.

4- مناسبتها لما قبلها وما بعدها من السور.

المطلب الثاني: الموضوعات التي تناولتها السورة.

المطلب الثالث: المحور العام الذي تدور حوله السورة.

المطلب الرابع: الوحدة الموضوعية للسورة من خلال محورها العام.

الخاتمة وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مدخل إلى التفسير الموضوعي.

لقد كان ظهور التفسير الموضوعي كعلم مستقل بذاته بمثابة فتحٍ لطالب العلم وللباحث، في استجلاء عظمة القرآن الكريم، والوقوف على أسراره، وحقيقة إعجازه في قوة تراكيبه وإحكام سرده وسبكه. ومن هذا المنطلق فقد ارتأيت أن أقسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب للتعريف بهذا العلم وقيمته، ومدى عظمته في استجلاء حقائق القرآن الكريم، على النحو التالي:

المطلب الأول: تعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي.

المطلب الثالث: مفهوم الوحدة الموضوعية.

المطلب الأول: تعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحا.

يتكون مصطلح "التفسير الموضوعي" من جزأين ركبا تركيبا وصفيا فلا بد من تعريف كل منهما على حدة، ثم تعريف المصطلح المركب منهما.

أولا: التفسير في اللغة.

المتتبع للفظة (التفسير) يجد أن كل التعريفات اللغوية تدور على الكشف والبيان كما سيأتي:

1- جاء في مفردات الراغب (الأصفهاني-2009-192/2): الفَسْرُ: إظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول: تَفْسِرَةٌ، وسمّي بها قارورة الماء. والتَّفْسِيرُ في المبالغة كالفسر، والتَّفْسِيرُ قد يقال فيما يختصّ بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختصّ بالتأويل، ولهذا يقال: تَفْسِيرُ الرّؤيا وتأويلها. قال تعالى:﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان: ٣٣]

2- وقيل: التفسير هو (تفعيل) من (الفسر) بمعنى الإبانة والكشف عن المراد من اللفظ المشكل (الأزهري -2001-183). قال تعالى:﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان: ٣٣] أي تفصيلا، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(الزركشي-1391هـ-184).

3- ويقال: هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ سَفَرَ وَمَعْنَاهُ أَيْضًا الْكَشْفُ يُقَالُ: سَفَرَتِ الْمَرْأَةُ سُفُورًا إِذَا أَلْقَتْ خِمَارَهَا عَنْ وَجْهِهَا وَهِيَ سَافِرَةٌ وَأَسْفَرَ الصُّبْحُ أَضَاءَ(الزركشي-1391هـ-147).

وهذا القولُ الأخير لا يستقيم؛ لأنَّ الأصلَ أن يكون للفظةِ ترتيبُها، ودعوى القلبِ خلافُ الأصل. قال الآلوسيُّ: "والقول بأنه مقلوب السَّفر، مما لا يسفر له وجه"(الألوسي-1415هـ-5).

ثانيا: التفسير في الاصطلاح.

عرفه أبو حيان بأنه: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك"(الأندلسي-2001-121).

وجاء في منظومة التفسير للزمزمي (الزمزمي-3):

علم به يبحث عن أحوال كتاب ربنا من جهة الإنزال.

كما عرفه الزرقاني بأنه "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"(الزرقاني-1996-4).

ولعل تعريف الزرقاني هو أنسب التعاريف؛ كون التفسير هو بيان لمراد الله تعالى الذي لا تحيط به العقول البشرية القاصرة، وبالتالي فإن كشف المراد لا يكون إلا في حدود الطاقة البشرية؛ لأن علم الله أوسع مدى وأكبر مما يحيط به عقل بشر.

ثانيا: تعريف الموضوع.

الموضوع لغة: من الوضع، وهو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان. يقال ناقة واضعة: إذا رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، وقيل: وضعت تضع وضيعة فهي واضعة، وكذلك موضوعه يتعدى ولا يتعدى، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي؛ لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به(الجوهري-1990-434).

الموضوع اصطلاحا:" هو قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة، أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون، تعرضت لها آيات القرآن الكريم"(مسلم-2005-16).

أو نقول: أن كلمة موضوعي نسبة إلى دراسة موضوع معين من الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم، مثل: "المرأة في القرآن الكريم"، "القيامة في القرآن الكريم"، الأخلاق في القرآن الكريم" وهكذا...

أما التفسير الموضوعي: "فهو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"(سعيد-1991-20).

المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي.

تتجلى أهمية هذا اللون من التفسير من خلال الآتي: (مسلم-2005-30):

1- إشباع المعلومات حول موضوع معين، فكثيرا ما تطرح موضوعات قابلة للدراسة والبحث وهذه لا يتم إشباعها إلا عن طريق الدراسة الموضوعية التي تحيط بها من كل جوانبها.

2- عن طريق التفسير الموضوعي يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه عبر الأزمنة المتعاقبة.

3- تطور العلم وتجدد حاجات المجتمعات، أدى ذلك إلى بروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية، وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ورؤية الحلول لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

4- يرسخ في أذهان الباحثين أهمية تفسير القرآن بالقرآن، إذ هو لب التفسير الموضوعي.

المطلب الثالث: مفهوم الوحدة الموضوعية.

إن الحديث عن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم معناه الحديث عن وجه من وجوه إعجازه، والحقيقة أن هذا اللون من التفسير الموضوعي لم يحظ بعناية المفسرين القدامى بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السورة، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وكما فعل البقاعي في "نظم الدرر"، وعبد الحميد الفراهي في كتابه "نظام القرآن".

وهذا ما يسميه المفسرون بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وهو بيان موضوعات السورة وربطها بموضوع عام تدور حوله السورة يسمى: " محور السورة" أو الموضوع العام للسورة.

ويكون من مهمات الباحث أن يقوم بالآتي:

1- عرض الموضوعات التي تناولتها السورة الكريمة.

2- بيان التسلسل المنطقي في ترتيب موضوعات السورة، مع بيان الربط بينها.

3- بيان الهدف العام الذي تدور حوله السورة.

4- ربط الموضوعات بالهدف العام للسورة.

والحقيقة إن مصطلح" الوحدة الموضوعية" أو ما يسميه البعض بالتفسير الموضوعي- وإن كان أشمل؛ لأن الوحدة الموضوعية جزء منه-لم يعرف بهذه التسمية إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر(مسلم-2005-17). إلا أن هذا اللون من التفسير وعناصره وجدت لبناته الأولى منذ عصر التنزيل في حياته صلى الله عليه وسلم، من ذلك(سعيد-1991-29):

1- تفسير الآيات القرآنية لبعضها البعض، وهو ما عرف فيما بعد بتفسير القرآن بالقرآن، وهو تتبع الآيات التي تناولت قضية معينة والجمع بينها وتفسير بعضها لبعض. ومن ذلك قوله تعال:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾[النحل:118] فهذه الآية أحالت إلى ما نزل قبلها من القرآن وعند التمعن نجد أنها أشارت إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[الأنعام:146]. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[المائدة:1]فقوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني من المحرمات وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا

أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الأنعام:145] وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾[المائدة:3]

2- ومن السنة هناك أمثلة كثيرة من ذلك ما رواه الشيخان وغيرها عن عبد الله بن مسعود ﷺقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأنعام: 82] شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: " إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13]. إنما هو الشرك (البخاري-193/5). وكذلك ما رواه البخاري أن رسول الله ﷺ فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾[الأنعام: 59]. فقال: مفاتح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان: 34]. وبهذا وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول الدين بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسير آية ما، فما أجمل في مكان فصل في مكان آخر، وما أطلق في سورة قيد في سورة أخرى.

يقول ابن تيمية: ((إن أصح الطرق في ذلك_ أي في تفسير القرآن_ إن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما أختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر)) (زررزو-1995-82).

2- آيات الأحكام ونقصد بها الآيات التي جمعها الفقهاء من كل باب من أبواب الفقه على حدة، وأخذوا في دراستها واستنباط الأحكام منها، والجمع بين ما يظهر التعارض، وذكروا ما نص عليه وما استنبط من القرآن بطريق الإشارة والدلالة الخفية، ونحو ذلك، وكله داخل تحت مسمى التفسير الموضوعي.

3- تتابعت الدراسات الموضوعية لكنها تحت منحىً آخر وهو الاتجاه اللغوي، وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة، ومن ذلك:

أ- كتاب "الأشباه والنظائر في القرآن الكريم" لمقاتل بن سليمان البلخي(ت: 150هـ) وذكر فيه الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآية القرآنية.

ب- كما ألف يحي بن سلام (ت: 200هـ) كتاب " التصاريف"(ذكر الدكتور مصطفى مسلم : أن هذا الكتاب حققته" هند شلبي" وطبعته الشركة التونسية للتوزيع) تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه على طريقة كتاب الأشباه والنظائر.

ج- كما ألف الراغب الأصفهاني (ت: 502هـ) كتاب" المفردات في غريب القرآن" حيث تتبع مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات.

د- أيضا ألف ابن الجوزي (ت: 597هـ) كتاب" نزهة الأعين النواضر في علم الوجوه والنظائر".

هـ- ومن قبله الدامغاني (ت: 478خ) في كتابه" إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم".

و- وفي القرن التاسع الهجري كان الفيروز آبادي (ت: 817هـ) قد لمع بكتابه " بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز".

ز- وتبعه في نفس القرن ابن العماد الحنبلي (ت: 887هـ) من خلال كتابه" كشف السرائر في معنى الوجوه والنظائر".

وإلى جانب ما سبق فقد برزت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغوية بل جمعت بين الآيات التي يربطها رابط واحد أو يمكن أن تدخل تحت عنوان معين ومن ذلك:

- كتاب" الناسخ والمنسوخ" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت: 224هـ).

- كتاب" أسباب النزول" للإمام علي بن المديني (شيخ البخاري) (ت: 234هـ).

- كتاب" تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة (ت: 276هـ).

- كتاب" أحكام القرآن" لأبي بكر الجصاص الحنفي (ت: 370هـ).

- كتاب "أحكام القرآن" ألفه إلكيا الهراسي الشافعي (ت: 504هـ).

- كتاب" أحكام القرآن" لابن العربي المالكي (ت: 543هـ).

كما ظهرت مؤلفات أخرى جمع أصحابها ما يشمله عنوان كل كتاب من هذه الكتب وهي:

- " أمثال القرآن" للماوردي (ت: 450هـ).

-" مجاز القرآن" العز بن عبد السلام (ت: 660هـ).

-" أقسام القرآن" و وكذلك" أمثال القرآن" لابن القيم (ت: 751هـ).

وبهذا لا زالت الدراسات في التفسير الموضوعي تترى إلى يومنا هذا، حيث توجهت أنظار الكتاب والمهتمين إلى تناول موضوعات القرآن الكريم، خاصة فيما يتعلق بمعطيات الحضارة المعاصرة، وظهور المذاهب والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية، والعلوم الكونية والطبيعية. فنجد مؤلفات كثيرة تحت عناوين شتى مثل: (الإنسان في القرآن_ المرأة في القرآن- الأخلاق في القرآن- اليهود في القرآن- الصبر في القرآن- الرحمة في القرآن- المحبة في القرآن...إلخ (مسلم-2005-21).

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة الحجرات.

سورة الحجرات من السور المدنية التي تناولت في طياتها العديد من المواضيع التي تهدف بجملتها إلى بناء المجتمع الإسلامي القويم الذي يقوم على الأخلاق والتربية الإيجابية في شتى نواحي الحياة المختلفة. وفي هذا المبحث سوف نقدم دراسة شاملة وافية عن سورة الحجرات من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: التعريف بسورة الحجرات.

المطلب الثاني: الموضوعات التي تناولتها السورة.

المطلب الثالث: المحور العام الذي تدور حوله السورة.

المطلب الرابع: الوحدة الموضوعية للسورة من خلال محورها العام.

المطلب الأول: التعريف بسورة الحجرات.

1- **اسم السورة:** اسمها سورة الحجرات، سميت بذلك لورود لفظ" الحجرات" فيها، ويقصد بها حجراته صلى الله عليه وسلم التي كانت بها نساؤه. يقول الفيروز آبادي: "سمّيت سورة الحُجُرات لقوله فيها؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾[الحجرات:4] (النجار-435/1). ويقول ابن عاشور: ((سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير سورة الحجرات وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ الحجرات)) (التونسي-2000-178).

2- **مكان النزول:** والسورة مدنية بالإجماع. يقول البقاعي: "مدنية إجماعاً، وشذَّ من قال: مكية"(البقاعي-1987-5). ويقول ابن عاشور: ((وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي مما نزل بعد الهجرة)) (التونسي-2000-187). وذكر السيوطي في الإتقان: أنها مكية وهو قول شاذ لا يعتد به؛ لأنه لا يعرف قائل هذا القول(السيوطي-1974-49/1). وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:13] نزلت بمكة في يوم فتح مكة (النيسابوري -1968-264/1). ويؤكد هذا القول ما ذكره الفيروزآبادي: "أمّا

التي نزلت بمكّة وحكمها مدني ففي سورة الحجرات ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[الحجرات:13] نزلت يوم فتح مكّة، لكن حكمها مدني؛ لأنّها في سورة مَدَنِيَّة"(النجار–100/1).

3– ترتيبها: هي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزول هذه السورة سنة تسع)) (التونسي–2000–178).

4– عدد آياتها وكلماتها وحروفها: وعدد آياتها ثمان عشرة آية، وثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة، وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا (البغدادي–1979–217/6). وعد الفيروز آبادي نفس العدد وخالف في حروفها فقال: ((أن حروفها ألف وأربعمائة وأربع وسبعون حرفا)) (النجار–435/1).

5– سبب النزول: نزلت صدر آيات هذه السورة في بني تميم لما وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم. فقد روى البخاري في صحيحه في قصة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد وقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي فقال عمر: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾حتى انقضت الآية(البخاري– 110/12).

ويقول ابن عاشور: ((فهذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات .... وقد جعلت في صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات؛ لأن ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولأن مماراة أبي بكر وعمر وارتفاع أصواتهما كانت في قضية بني تميم فكانت هذه الآية تمهيدا لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[الحجرات:2])) (التونسي–2000–181/26).

6– أغراضها: يذكر الفيروز آبادي أن معظم مقصود السورة هو:((محافظة أمر الحق تعالى، ومراعاة حرمة الأكابر، والتؤدة في الأمور، والاجتناب عن التهور، والكون في إغاثة المظلوم، والاحتراز عن السخرية بالخلق، والحذر عن التجسس والغيبة، وترك الفخر بالأحساب والأنساب، والتحاشي عن المنة على الله بالطاعة، وإحالة علم الغيب إلى الله تعالى)) (النجار–435/1). ويذكر البقاعي أن مقصودها: " توقير النبي – صلى الله عليه وسلم –، وحفظ ذلك من إحلاله بالظاهر ليكون دليلاً على الباطن فيسمى إيماناً، كما أن الإيمان بالله تعالى يشترط فيه تقبل الأعمال الظاهرة، والإذعان لفعلها بشرائطها وأركانها وحدودها، لتكون بينة على الباطن، وحجة شاهدة له"(البقاعي–1987–5/3).

ويقول ابن عاشور: ((تتعلق أغراضها بحوادث جدت متقاربة كانت سببا لنزول ما فيها من أحكام وآداب، وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته وخطابه وندائه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول صلى الله عليه وسلم من بيوته كما حكى عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[الحجرات:4] ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت فينقل الخبر مطلقا وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم)) (التونسي–2000– 179/26).

7– مناسبتها لما قبلها.

ذكر الرازي في مناسبة هذه السورة لما قبلها عدة وجوه(الشافعي–2000–95/28):

((**أحدها**: أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي صلى الله عليه وسلم من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم على سبيل العموم لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله.

الثاني: هو أن الله تعالى لما بيّن محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين. قال: لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث: هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا.

وجاء في البحر المحيط: ((مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه، ثم قال:﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[الفتح:29] فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه فقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات:1])) (الأندلسي – 2001– 506/9).

ويقول الآلوسي في مناسبتها مع ما قبلها: ((ولا يخفى تواخيها مع ما قبلها لكونهما مدنيتين مشتملتين على أحكام، فتلك فيها قتال الكفار وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريفات له صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصا مطلعها، وهذه أيضا في مطلعها أنواع من التشريف له عليه الصلاة و السلام)) (الألوسي–1415هـ–131/26).

8– مناسبتها لما بعدها:

يقول ابن عطية في مناسبتها لما بعدها: ((أنه لما ختم هذه– الحجرات– بأولئك الذين قالوا آمنا، ولم يكن إيمانهم حقاً، وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوة الرسول صلى الله عليه وسلّم، فقال في السورة التي تليها: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾[ق:2] وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث، فلذلك أعقبه به)) (الأندلسي – 2001–528/9).

ويقول البقاعي: ((لما ختم سبحانه الحجرات بإحاطة العلم قال أول السورة التي تليها ﴿ق~﴾ إشارة إلى أنه هو سبحانه وحده المحيط علماً وقدرة؛ بما له من العلو والشدة؛ والقوة القيومية والقهر؛ ونافذ القضاء والفتح لما أراد من المغلقات، بما أشارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاث: الحلق واللسان والشفاة)) (البقاعي–1995–244/7).

مما سبق ندرك مدى الترابط بين سورة الحجرات والسورة السابقة لها واللاحقة، فالذي يتأمل كل سور القرآن الكريم يجد دقة الترابط بين السور القرآنية، وبين آياته وسوره، وكلماته وجمله، فهي قد رتبت ترتيبا دقيقا لا يحسن إلا ما رتبت عليه، حيث إن سوره وآياته قد تعلق بعضها ببعض تعلق العلة بالمعلول، ورتبت جمله وكلماته ترتب السبب مع المسبب، فكل كلمة تستدعي ما بعدها، وفي نفس الوقت كانت هي قد استدعاها ما قبلها، فترابطت في نسق منظوم، وسبك متلائم بين الألفاظ والمعاني، في جودة من الإحكام والسرد والترابط بلغ مبلغا لا يدانيه أي كلام، رغم تغاير المقاصد والموضوعات، وامتداد أزمان تنزلات الوحي به، وتعدد أسباب النزول(العمراني –2016–9).

المطلب الثاني: الموضوعات التي تناولتها السورة.

المتأمل في هذه السورة الكريمة يجد أن موضوعاتها تتناول بناء المجتمع المسلم وتهيئته تهيئة إيمانية، من أجل بناء حضارة إنسانية مركزها الأخلاق والقيم والتعامل. يقول الشيخ الصابوني: "إن هذه السورة الكريمة مدنية النزول، فهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، حتى سماها بعض المفسرين سورة الأخلاق"(الصابوني–2009– 1199/3). وقد جاءت هذه التسمية– سورة الأخلاق– عند بعض المفسرين؛ لما تناولت في ثناياها من الأدب الجم الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين تجاه شريعته، وأمرَ به رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول سيد قطب: ((هذه السورة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات)) (سيد– 488/6). وفي هذا السياق سوف نتناول الموضوعات التي عرضتها السورة الكريمة على النحو التالي:

أولا: أدب المعاملة مع الله ورسوله.

ويتمثل في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الحجرات:1]. قال قتادة: "ذُكِرَ لَنَا نَاسًا كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ أُنْزِلَ فِي كَذَا وَكَذَا الْوَضْعُ كَذَا وَكَذَا، فَكَرِهَ اللَّهُ ذَلِكَ وَقَدَّمَ فِيهِ(السيوطي–1993–7/546). وبيَّن التربية السليمة التي تقوم على النظام الأخلاقي، والتي تتجلى واضحة في هذه السورة الكريمة من خلال محاورها وموضوعاتها المختلفة، المشتملة على التوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة من أجل بناء مجتمع سليم ونظيف يحمل قيما وأخلاقا تؤهله لقيادة العالم، وبناء الحضارات، عَالَمٌ يقول عنه سيد قطب: ((يتضمن القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيراً، عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله، علم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة...عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره. أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه. وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته. وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتسق معه؛ فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره. وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله)) (سيد– 488/6).

لقد ابتدأت السورة بالأدب الخاص المتمثل في التعامل معه سبحانه وتعالى، ومع نبيه صلى الله عليه وسلم، بحيث لا يقدموا أمرا أو فعلا بين يدي الله ورسوله، ولا يبرموا أمرا، ولا يبدون رأيا، ولا يقضوا حكما في مجلسه صلى الله عليه وسلم، وإذا عرضت مسألة بين يديه لا يسبقونه في الجواب، حتى إن الأدب بلغ قمته العليا في التأدب معه صلى الله عليه وسلم وذلك أنه إذا حضر الطعام بين يديه فلا يبتدئون بالأكل، بل حتى لو مشوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه(الصابوني–2009– 1201/3). حتى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حق العلم، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم؛ خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله. يظهر ذلك جليا في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في حجة الوداع: ((أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى! قال: أي بلد هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: أليس البلدة الحرام؟ قلنا بلى! قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا بلى! ... الخ)) (البيهقي–1994–6/92).

إنه أدب ما بعده أدب، وأخلاق لم تشهد البشرية مثلها على مدار العصور والأزمان، كما شهدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يتعاملون معه تعاملاً لفت أنظار الكثيرين من غير المسلمين إلى تلك الروح العظيمة، حتى قال عروة ابن مسعود الثقفي موفد قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم للمفاوضة: "والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه مثلما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره"(السيوطي–1993–7/529).

ثانيا: أدب الخطاب معه صلى الله عليه وسلم.

ويتمثل بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:2-5].

من هنا نلمس الانتقال من أدب التعامل في الآية الأولى إلى أدب الكلام معه صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات، كونه ليس كأي بشر من سائر الناس فهو رسول ونبي اصطفاه ربه، فلا بد أن يكون هناك تعامل يليق بعظمة مقامه صلى الله عليه وسلم(الصابوني–2009– 1199/3). فخطابه صلى الله عليه وسلم له أدب خاص في الجمال والتوقير. روى البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال: ((كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم– في السنة التاسعة من الهجرة– فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع – أي ليؤمره عليهم– وأشار الآخر برجل آخر. قال نافع : لا أحفظ اسمه – في رواية أخرى أن اسمه القعقاع بن معبد– فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله الآيات...)) (الجعفي .–1987– 1833/4).

وقيل أنها نزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت والعنجهية وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه في صوته جهارة فلما نزلت هذه الآية اهتم وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين حتى عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره فبعث فيه فأنسه وقال له: امش في الأرض بسطا فإنك من أهل الجنة. وقال له مرة: أما ترضى أن تعيش حميدا وتموت شهيدا، فعاش كذلك ثم قتل باليمامة يوم مسيلمة(الأندلسي –1993– 128/5).

يقول سيد قطب عن تأثير هذه التوجيهات في نفوس الصحابة: "لقد عمل في نفوسهم ذلك النداء الحبيب، وهذا التحذير المرهوب، عمله العميق الشديد... فارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب، وذلك التحذير الرعيب؛ وهكذا تأدبوا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون. ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه"(**سيد**– 493/6).

ثم بينت الآيات الكريمة المدح الإلهي لأولئك الصفوة من الصحابة الكرام الذين يتأدبون في خطابهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك عدم رفع أصواتهم في حضرته. قال تعالى مبينا ذلك الأدب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(3) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات: 3-5]

وقد جاء في سبب نزول قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أنها نزلت في شأن نفر من بني تميم، قصتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أسامة بن زيد فانتهى إلى

قبيلة وكانت تسمى بني العنبر فأغار عليهم وسبى ذراريهم، فجاء جماعة منهم ليشتروا أسراهم أو يفدوهم فنادوه وكان وقت الظهيرة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة فنادوه من وراء الحجرة، وكان لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم حجرات، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم كلموه في أمر الذراري فقال لواحد منهم: أحكم . فقال: حكمت أن تخلي نصف الأسارى وتبيع النصف منا، ففعل النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأنهم لولم يناديه، لكان يعتقهم كلهم(الحنفي– 308/3).

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا محمد إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فقال صلى الله عليه و سلم: "ذاك هو الله " فنزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ....الآية ﴾(السيوطي–1993– 553/7).

ثالثا: أدب التعامل بين المؤمنين بعضهم البعض.

ويتمثل في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[الحجرات:6] في هذه الآية انتقل التوجيه من الأدب الخاص إلى الأدب العام، ويأتي في بداية هذا التوجيه العام خطاب المؤمنين بالتثبت في الأخبار وعدم العجلة في النقل والحكم. وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: ((أنها نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي بني المصطلق مصدقا، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيما لله تعالى ولرسوله فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى الآية)) (الواحدي–1968–261/1).

بهذا التوجيه السامي العظيم وجه الله المؤمنين بالتحري فيما بينهم حتى لا يقعوا في الإثم والندم نتيجة وشاية قام بها مغرض، فتتحرك النفوس ويأتي رد الفعل مع الغضب ربما تودي بمصائب لا تحمد عقباها.

وعبر بالفاسق هنا؛ لأنه مظنة للكذب، كذلك حتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء؛ لأن الأصل في الجماعة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، أما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق، فتصيب قوماً بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل بسبب الاندفاع(سيد– 495/6).

رابعا: الصلح بين المؤمنين، وقتال البغاة منهم.

ويتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: 9–10]

في هذا الموضع بين سبحانه وتعالى حكم الطائفتين المتخاصمتين داخل الصف المسلم والجماعة المسلمة، حيث بين سبحانه واجب الجماعة المسلمة في احتواء هذا الخلاف بالصلح بين المتخاصمين، وتحدثة الفتنة القائمة بينهم، فلو أن طائفة أصرت على غيها وبغيها في عدم الاحتكام لله ولرسوله، فإن الواجب على كل الجماعة المسلمة قتالها؛ لأنها تعد باغية، واستخدم (إنْ) في قوله: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾ إشارة إلى ندرة حصول القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم؟ نقول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادراً، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي، كما أننا نلحظ أنه قال: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾ ولم يقل فرقتان، وفي هذا تجسيد لما ذكر من أنه شيء نادر الحدوث؛ لأن الطائفة أقل من الفرقة(الشافعي–2000– 109/28).

خامسا: النهي عن الأخلاق الذميمة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:11]

فالآيات الكريمات تناولت موضوع النهي عن الأخلاق الذميمة مثل السخرية، اللمز، التنابز، سوء الظن، التجسس، الغيبة، التفاخر بالأنساب، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، التي تجعله مجتمعا ربانيا متميزا في سلوكه مع بعضه البعض، وبهذا الأدب الرفيع أقام الإسلام مجتمعه وحضارته، كل فرد فيه له كرامته وقيمته واعتباره؛ لأنه جزء لا يتجزأ عن الإنسانية الواحدة، ذات الكرامة الواحدة، ولهذا الغرض النبيل كان النهي عن الفخر والعجب والاستهزاء والغمز واللمز بالآخرين؛ ازدراءً بهم وبمكانتهم، ولربما كان الآخر هو خير ممن يسخر منه، وإن دلالة الآية لتوحي في قوله: ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا– عَسَى أَنْ يَكُنَّ﴾ على حد تعبير سيد قطب رحمه الله: ((فيها إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس، فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد، وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم، وذو العصبية من اليتيم...وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة...ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين)) (سيد– 499/6).

كما ينبغي للإنسان عدم الظن بالآخرين أو التوقع، أو حتى محاولة الاطلاع عليهم لكشف أمرهم من أجل ضبطهم، وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها. يقول ابن عاشور: ((تَأْدِيبٌ عَظِيمٌ يُبْطِلُ مَا كَانَ فَاشِيًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الظُّنُونِ السَّيِّئَةِ وَالتُّهَمِ الْبَاطِلَةِ وَأَنَّ الظُّنُونَ السَّيِّئَةَ تَنْشَأُ عَنْهَا الْغَيْرَةُ الْمُفْرِطَةُ وَالْمَكَائِدُ وَالِاغْتِيَالَاتُ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْمُبَادَأَةُ بِالْقِتَالِ حَذَرًا مِنِ اعْتِدَاءٍ مَظْنُونٍ ظَنًّا بَاطِلًا، كَمَا قَالُوا: خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَكَ. وَمَا نَجَمَتِ الْعَمَائِدُ الضَّالَّةُ وَالْمَذَاهِبُ الْبَاطِلَةُ إِلَّا مِنَ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ)) (التونسي–2000– 209/26).

كما جاء ذكر التجسس في الآية الكريمة بعد الظن مباشرة؛ لأنه ناتج عنه، فالذي يظن شيئا يظل يتجسس ليتحقق لديه ما ظنه في النفس. والتجسس: هو البحث بخفية، دون شعور الآخرين به وهي لفظة مشتقة من الجاسوس.

وحين جاء التحذير عن الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإبداع، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه، وياله من تنفير عجيب، ترتدع عنه النفس مباشرة لكي ترقى إلى سلم الكمال والقيم.

سادسا: أصل الإنسانية وأساس التفاضل بينهم.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهو انتقال من واجب المعاملات مع الآخرين إلى ما يجب أن يراعيه كل إنسان في نفسه، حيث كان النظام في الجاهلية قائما على أساس إعجاب كل قبيلة بنفسها وازدراء ما

عداها، وكان هذا الأمر سائدا ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل شاملا للكرة الأرضية برمتها، النظام هو نظام الطبقات والتمايز.

يقول ابن عاشور: ((سئل أعرابي: أتحب تدخل الجنة وأنت باهلي فأطرق حينا ثم قال: على شرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي. فكان ذلك يجر إلى الإحن والتقاتل وتتفرع عليه السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والاغتياب الواردة فيها الآيات السابقة، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود إذ كثر الداخلون في الإسلام)) (التونسي–2000– 215/26).

ولهذا بين الله في الآية أساس خلق الإنسان في حالته الاعتيادية المألوفة، الناتجة عن اتصال الذكر بالأنثى فيكون الإنجاب والنسل، وقد ذكر في مواطن أخرى أساس خلق الإنسان الأول من طين، والذي لم تشهده البشرية بنفسها، وكل هذا التذكير جاء تعقيبا على ما سبق من عدم الاستهزاء واللمز بالآخرين ليتجسد مفهوم الإنسانية الواحدة فلا يستعلي أحد على أحد.

يقول سيد قطب: ((وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان، وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون، ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته لواء التقوى في ظل الله)) (سيد– 3/7).

فالمعيار الذي جسده هذا الدين لا يقوم على الحسب أو النسب، ولا يقوم على الغنى أو الفقر، ولا الوجاهة أو المنصب، إنما يظل التقوى هو معيار التفاضل، ولهذا كم من فقير سبق الغني، وكم وضيع سبق الشريف، إنه ميزان السماء القائم على معيار الصلة بين العبد وربه.

والشعوب: جمع شعب وهو مجمع القبائل التي تعود إلى جد واحد من أمة مخصوصة، والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها(التونسي–2000– 216/26).

سابعا: بيان حقيقة الإسلام والإيمان.

وذلك من خلال الحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاءوا يمنون على الرسول صلى الله عليه وسلم بإيمانهم، ولهذا جاءت الآيات توضح حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان، والإخلاص والجهاد، والعمل الصالح(الصابوني–2009–3/1199).

قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات:14–15]

وبهذا بينت الآيات أن أول الطريق هو الإسلام، فإذا انضوى المسلم تحت لوائه، كان مسلما يقبل الله منه عمله، عكس الكافرين الخارجين عن دائرة القبول، وما يزال المسلم يتدرج في سلم الطاعة حتى إذا ذاق قلبه حلاوة الإيمان، انتقل نقلة نوعية في عالم الروح، يشعر بالرضا والتسليم لله عزوجل في كل أموره.

يقول ابن جرير: ((لم يصدّقوا إيمانهم بأعمالهم، فردّ الله ذلك عليهم: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ وأخبرهم أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون، صدّقوا إيمانهم بأعمالهم، فمن قال منهم: أنا مؤمن فقد صدق. قال: وأما من انتحل الإيمان بالكلام ولم يعمل فقد كذب وليس بصادق)) (الطبري–2000– 22/314).

ويقول الزمخشري: ((وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان في قُلُوبِكُمْ، توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قوله: (قُولُواْ). وما في (لَمَّا) من معنى التوقع: دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد)) (الخوارزمي – 4/380). وخالفه فيه أبو حيان بقوله: ((ولا أدري من أي وجه يكون ما نفي بـ(لم) يقع بعد و(لما) إنما تنفي ما كان متصلاً بزمان الإخبار، ولا تدل على ما ذكر)) (الأندلسي–2001– 8/116). يقول ابن عاشور: ((والزمخشري حجة في الذوق لا يدانيه أبو حيان)) (التونسي–2000– 26/221).

ثم بين سبحانه صفات المؤمنين الحقيقين في الآية الثانية بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

فهم الذين صدقوا وآمنوا إيمانا مطلقا بوحدانيته سبحانه وتعالى، إيمانا يتجسد في واقعهم وفي سلوكهم، إيمانا برسوله صلى الله عليه وسلم بأنه نبي مبلغ عن ربه، وقبول كل ما جاء به، ثم الجهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

يقول سيد قطب: ((فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لا بد أنه مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة) (سيد– 5/7).

ثم ختم الآيات بالرد على الذين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: آمنا بك ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فرد الله عليهم بقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقد جاء في سبب النزول للآيات: أنها نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السّر، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية)) (الواحدي–1968– 385).

هذه أبرز المحاور التي تناولتها السورة الكريمة، مما يعطيها إنفرادا عجيبا رغم قصرها إلا أنه احتوت على موضوعات وتهذيبات وتوجيهات تربوية رغم قلة آياتها.

المطلب الثالث: المحور العام الذي تدور حوله السورة.

حين ينعم الناظر نظره في هذه السورة الكريمة، يجد التوجيهات الإلهية التي تصنع الإنسانية الواحدة القائمة على الأخلاق، والرقي الحضاري. ولكن أهم ما يبرز في هذه السورة هو " أدب الأخلاق" أدب يرقى بأمة لتكون أفضل أمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم، ومن هنا نرى السورة الكريمة ابتدأت بأدب التعامل مع الله ومع رسوله بحيث لا يقدمون أمرا قبل أن يأتي فيه شيء من الله ورسوله، ثم عقب بأدب الحديث معه صلى الله عليه وسلم، وانتقل التوجيه القرآني من الأدب الخاص إلى الأدب العام، وهو التعامل مع المؤمنين بعضهم بعضا، فحثهم أولا على التثبت من الأخبار والشائعات حفاظا على جسد الأمة الواحد المتلائم، ووصف من يقوم بهذه المهمة بـ"الفاسق" كونه يرتكب أكبر جرم في حياة الأمة من حيث النقل غير الصحيح المؤدي إلى تشتيت صفوفها.

وتظهر أخلاق التعامل من خلال توجيهه سبحانه الجماعة المؤمنة في حال نشوب أي خلاف بين صفوفها أن تقوم بدور المصلح المحايد البعيد عن الولاءات القائمة على العصبيات

في عصر الجاهلية، فإذا لم تخضع أي طائفة منهما للحق كان على جميع المؤمنين التصدي لها بقوة وبحزم؛ حتى لا يصبح المجتمع المسلم تحت سيطرة الفوضى، وأن يكون الجميع صفا واحدا لقتال الطائفة الباغية.

ثم نلحظ الأخلاق تظهر مرة أخرى من خلال توجيه المؤمنين بعدم اللمز والنميمة والسخرية، وسوء الظن، كل هذه الخصال نهى الإسلام عنها؛ لأنه جاء لبناء الإنسانية القائمة على الأخلاق والفضيلة، ولهذا عقب هذا النهي ببيان حقيقة خلق الإنسان، بأن الكل من ذكر وأنثى، الكل أبناء تسعة أشهر، الكل سواسية كأسنان المشط، الكل سواسية في ميزان الله لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كل ذلك ليعلم من تسول له نفسه ومركزه الاجتماعي أو منصبة احتقار الآخرين، أنه لا فرق بينه وبين من يستهين به فلربما كان الآخر أفضل منه في ميزان الله بتقواه.

وأخيرا نلتقي بالأخلاق في آخر السورة من خلال قصة أعراب بني تميم الذي زعموا الإيمان وما بلغوه فعلمهم أدب العرض، وفي هذا أخلاق ودروس عظيمة، نتعلم منها التواضع وعدم ادعاء ما لم نبلغه، وأن نكون متواضعين إذا بلغنا مرتبة لا مستعرضين، فإن ما وصلنا إليه هو بفضل الله لا بعبقريتنا.

وهكذا تتوالى الآيات تباعا في هذه السورة وهي تحدثنا عن الأخلاق، بل هي الأخلاق بكلها.

المطلب الرابع: الوحدة الموضوعية للسورة من خلال محورها العام.

عند النظر والتدبر في سورة الحجرات والمحاور التي تناولتها، نلاحظ أن هذه المحاور المختلفة التي عالجتها السورة وتناولتها بالدراسة والتفصيل، كلها تدور حول محور واحد يشكل نقطة انطلاق لموضوعات السورة كاملة، هو موضوع "الأخلاق" فقد جاءت كل الموضوعات في السورة والقصص تربي هذا الخلق وتهذبه، بل اعتبرها الشارع الحكيم هي أصل الإيمان بالله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الخلاق)).

والذي يجسد ما قلته من أن الأخلاق هي أساس الإيمان، هو مجيء لفظ "الإيمان" بمشتقاته في هذه السورة نحو أربع عشر مرة، وهذا يؤكد بأن الأخلاق رافد رئيس في بناء الإيمان، كما أن الواقع يشهد أن الذين أفلسوا في الأخلاق هم من باب أولى مفلسون في صلتهم بالله تعالى، والعكس يطمئننا بقوة أن الذين يمتلكون أخلاقا وقيما هم قاب قوسين أو أدني من دخولهم في رحاب بحبوحة الإيمان، هذا إن كانوا مقصرين؛ لأن أكثرهم نراهم في سفينة الإيمان مبحرين.

وتظهر الأخلاق جلية في بناء الإيمان من خلال موضوعات السورة المختلفة، مما يدلنا على أن الأخلاق جزء لا يتجزأ عن الإيمان، ففي البداية نهى المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله، بأمر أو قول، أو فعل ونحوه، لأن هذا مما يحبط الإيمان، الذي خاطب الله به المؤمنين في بداية السورة، ثم نهى عن رفع الصوت بين يديه صلى الله عليه وسلم، والأمر يشمل ذلك في حياته وبعد مماته، وخاطب بهذا الأدب الراقي المؤمنين أن يعملون به، ثم أمر المؤمنين بالتثبت عند نقل الأخبار؛ لأن التعجل في الأمر مما يذهب الإيمان، ثم نهى عن بعض الخصال التي تذهب الإيمان من صاحبها مثل السخرية، والهمز، واللمز، والغيبة والنميمة، وسوء الظن، وكل هذه الخصال تتناقض مع مفهوم الإيمان به سبحانه وتعالى، ثم ختم الحديث عن بيان معنى الإيمان الصحيح تأكيدا وتثبيتا لما عالجته السورة بأكملها، مبينا حقيقة الإيمان الحق، ومحددا تحديدا دقيقا للمفهوم الحق البعيد عن الخلط من حيث تسمية الأمور بغير مسمياتها، ثم يحسم القضية حسما لا جدال بعده ولا لبس مبينا حقيقة المؤمنين بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، وأخيرا فإن آخر آية ورد فيها لفظ الإيمان هي الآية التي قبل الأخيرة وهو قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أليست هذه السورة كلها من أولها إلى أخيرها قد جاءت مربية ومهذبة للإيمان والذي منه تتفرع كل أخلاق الفرد، وتختم السورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومن حقيقة الإيمان أن نعلم ونؤمن جازمين بلا شك أو ريب بأن الله يعلم غيب السموات والأرض وما بينهما وهي حقيقة ثابتة لا يتم إيمان الفرد إلا بها.

ومن معالم الوحدة الموضوعية في هذه السورة كما يقول سيد قطب: ((وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيراً .. . عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله . عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة .. . عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتسق معه؛ فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله)) (سيد– 488/6).

وبهذا تكاد السورة تكون من أولها إلى آخرها كأنها سبيكة واحدة تنتظم حرزاتها في عقد واحد فريد؛ لتظهر بأجمل حللها، إنها الوحدة الموضوعية المتكاملة التي تجعلها من أولها إلى آخرها تتناسق موضوعاتها مع بعضها لتشكل نسقا من الجمال الفني، محوره العام الأخلاق الذي ينتج عنه الإيمان المتكامل.

وما أسوأ الأمة اليوم وهي تعاني من انفصام في شخصيتها، فنرى كثير من المنتسبين للدين لا يعون أهمية ما هم فيه، فنرى أخلاقهم متردية في الوحل، ونرى الفريق الآخر يستغل هذا التصرف ويحسبه على الإسلام، علما بأن هذا الدين جوهرة خالصة ثمينة لا يزيد جمالها بضوء النهار ولا ينقص منه شيئا بظلمة الليل، بل من اقترب منه زاد جمالا وحسنا وقيما.

الخاتمة والاستنتاج.

وبعد دراسة السورة دراسة موضوعية، درسنا فيها أهم الموضوعات التي تناولتها السورة، كما بينا المحور العام الذي تدور حوله موضوعات السورة، خرجنا بالعديد من الاستنتاجات وهي على النحو التالي:

1- إن هذا القرآن كلام معجز لا يضاهيه كلام البشر أيا كان مستواه؛ ولهذا تحدى أرباب الفصاحة من أن يأتوا ولو بآية واحدة مثله تضاهيه في الأسلوب والبيان والنظم.

2- أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره، عبارة عن سبيكة واحدة، أو عقد فريد نظم نظما يعجز عنه القاصرين دونه، وما دام أن الذي نظمه هو رب العزة والجلال فلا شك أن كل بني الإنسانية هم أقزام أمام نظمه الفريد، لن يستطيعوا المحاولة بإيجاد ما يشابهه نظما ورصفا.

3- إن سورة الحجرات من خلال دراستها، وبيان موضوعاتها تبين أنها عبارة عن عقد منتظم كله يدور حول محور مهم هو محور الأخلاق، الذي يعد من أرقى مراتب الدين.

وأخيرا فإني أسأل من الله الأجر والثواب على ما قمت به من دراسة متواضعة لهذه السورة، فإن أحسنت فمن الله، وإن أخطأت وقصرت– وديدن النفس كذلك– فمن نفسي والشيطان.

قائمة المصادر والمراجع.

1. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1394هـ–1974م، *الإتقان في علوم القرآن*، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، 1388هـ–1968م، *أسباب النزول*، دار الباز للنشر والتوزيع– مكة المكرمة.

3. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم الفقيه الحنفي، تحقيق: د. محمود مطرجي، *بحر العلوم*، دار الفكر– بيروت.
4. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود – والشيخ علي محمد معوض، 1422هـ - 2001 م، *البحر المحيط*، ط1، دار الكتب العلمية – لبنان– بيروت.
5. الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،1391هـ، *البرهان في علوم القرآن*، دار المعرفة – بيروت.
6. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق: محمد علي النجار، *بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز*، المكتبة العلمية_ بيروت.
7. الجوهري، إسماعيل بن حماد،1990م، *تاج اللغة وصحاح العربية*، ط4، دار العلم للملايين–بيروت.
8. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي،1420هـ/2000م، *التحرير والتنوير*، ط1، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان.
9. الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، 1399هـ /1979م، *تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل*، دار الفكر - بيروت – لبنان.
10. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تحقيق: محمد عوض مرعب،2001م، *تهذيب اللغة*، ط1، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
11. الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، تحقيق: أحمد محمد شاكر، 1420هـ - 2000 م، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، ط1، مؤسسة الرسالة.
12. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، 1407هـ-1987م، *الجامع الصحيح المختصر*، ط3، دار ابن كثير ، اليمامة– بيروت.
13. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي،1993م، *الدر المنثور*، دار الفكر – بيروت.
14. الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، 1415هـ، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت.
15. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، 1414هـ - 1994م، *سنن البيهقي الكبرى*، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة.
16. الصابوني، محمد بن علي الصابوني،1430هـ-2009م، صفوة التفاسير، المكتبة العصرية- صيدا- بيروت.
17. العمراني، د. منصور علي العمراني،2016م، *علم المناسبات القرآنية في سورة مريم*، ط1، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع ودار الإعصار العلمي- الأردن- عمان.
18. قطب، سيد قطب، *في ظلال القرآن*، دار الشروق- بيروت، طبعة جديدة منقحة.
19. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
20. مسلم، د. مصطفى مسلم، 1426هـ/ 2005م، *مباحث في التفسير الموضوعي*، ط4، دار القلم- دمشق.
21. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، 1413هـ- 1993م، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، ط1، دار الكتب العلمية – لبنان.
22. سعيد، د. عبدالستار فتح الله سعيد،1991م، *المدخل إلى التفسير الموضوعي*، ط2، دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة.
23. البقاعي، إبراهيم بن عمر البقاعي، 1408 هـ- 1987م. *مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ*، ط1، مكتبة المعارف – الرياض.
24. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي،1421 هـ - 2000م، *مفاتيح الغيب*، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت.
25. الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني 2009، *مفردات ألفاظ القرآن*، دار القلم . دمشق.
26. ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية، تحقيق: عدنان زرزور، 1415هـ- 1995م، *مقدمة في أصول التفسير*، دار الرسالة للنشر والتوزيع_ مكة المكرمة.
27. الزرقاني، محمد عبدالعظيم الزرقاني، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، 1996م، مناهل العرفان في علوم القرآن، ظ1، دار الفكر- بيروت.
28. منظومة التفسير للشيخ الأديب المفسر عبد العزيز الزمزمي مع شرحها التيسير.
29. دراز، د. محمد عبد الله دراز، *النبأ العظيم*، دار القلم- الكويت.
30. البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، 1415هـ - 1995م، *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*، دار الكتب العلمية – بيروت.